

1- الحط من قيمة ملكة التفكير

يتمثل أحد أبرز مظاهر ابتذال الحياة الثقافية في تحويل المثقف إلى شخص قليل الأهمية على نحو فريد. حتى في فرنسا التي يفترض أن تكون موئل المثقفين، يبدو هؤلاء وكأنهم لا يؤدون أي دور ثقافي يذكر في حياة المجتمع. لاحظ أحد المراقبين الأميركيين أنه بالمقارنة مع شخصية مثل جان-بول سارتر، فإن «المثقفين الفرنسيين اليوم يبدوون مجرد تكنوقراطيين هزيلين»¹³.

يعكس المثقفون ثقافتهم ومزاج عصرهم. وقد قلب الدور الذي يؤدونه والنفوذ الذي يستطيعون ممارسته في أثناء القرون الثلاثة الماضية. ليست هذه هي المرة الأولى التي ينظر فيها إلى دور المثقف في المجتمع على أنه دور ضعيف. في أثناء خمسينيات القرن العشرين، وفي أوج الحرب الباردة، كان العديد من المفكرين البارزين الموالين للغرب قلقين من حالة الاستنزاف التي تعانيها الحياة الثقافية. بدا أن عدم المبالاة والوهن العقلي أصابت أولئك المنخرطين في العمل الفكري. حتى وسائل الإعلام انضمت إلى النقاش وحاولت استنهاض ما رأت فيه إنتاجاً سياسياً أصابها السبات. وطبقاً لإحدى الروايات:

طوال عقد الخمسينيات، كانت المجلات والجرائد تحط من شأن الشباب بوصفهم أفراداً في «جيل صامت» غير مبالٍ سياسياً، سلبي فكرياً، لا يكثرث للقضايا



الاجتماعية بقدر اكرائه للأمن الاقتصادي، وينشغل بشكل كامل بحياته الخاصة¹⁴.

على الرغم من أن هذا الوصف يبدو على السطح، وكأنه يعلّق على مزاج عصرنا، ينبغي الإشارة إلى أن نفوذ المثقف الذي كان ينتمي إلى «الجيل الصامت» في الخمسينيات كان أكبر بكثير من نفوذ مثقف هذه الأيام. بالرغم من صعوبة قياس أو مقارنة هذا النفوذ، إلا أنه من الممكن الإشارة إلى عدد من الاختلافات المهمة بين الفترتين. إن نفوذ المفكرين على الحياة السياسية، وخصوصاً على اليسار، يتباين بشكل صارخ مع الحال اليوم. بالرغم من ذلك فإن القلق العام للغياب النسبي لصوت المثقف كان دليلاً على الأهمية التي كان يتمتع بها هذا الصوت في الخمسينيات. أما الموقف الذي من المرجح أن يكون مهيمناً اليوم فهو، «هل له بالفعل أي أهمية؟» إن غياب الاهتمام بمكانة المثقف تتباين بحدّة مع المناظرات اللاهبة التي أحاطت بدوره في الماضي.

إننا نعيش في زمن تعبر فيه كتب ومقالات صحفية تحمل عناوين مثل «آخر المثقفين» عن إحساس طاع بالانفصال الثقافي. إن وصف مفكر عادي جداً بـ «آخر المثقفين»¹⁵ ليس مسألة محبة ثقافية. واقع الحال هو أنه ليس هناك العديد من الأصوات الفكرية المتميّزة، ومن الصعوبة بمكان الإحساس بأثرهم الجمعي على المجتمع. وبالفعل فإن غياب حركة فكرية مهمة مسخّرة لتعزيز مجموعة متميّزة من الأفكار في أذهان الجمهور الأوسع هو ما يوضح مزاج العزلة هذا.

من شخصية محورية إلى روح ضائعة

يمكن فهم أهمية هذا التغيير الذي طرأ على مكانة المثقف بسهولة أكبر عندما يوضع في سياقه التاريخي. طوال القرون الثلاثة الماضية تقريباً، كان المثقف يتمتع بسلطة ثقافية ونفوذ ثقافي هائلين. كان المعلقون في كثير من الأحيان يعبرون عن إحساس مبالغ فيه عن مكانة المثقفين، وكان يعتقد أنهم يتمتعون بقدرة كبيرة على التأثير في الأحداث. وكان المفكرون يصرون في كثير من الأحيان على أنهم متمردون خطرون يقودون الهجوم على النظام التقليدي ونجحوا في عملية إطلاق قوى الظلام المتمثلة في التدمير الراديكالي من عقالها. كان مثقفو عصر التنوير يلامون باستمرار لفرض أيديولوجيتهم المتمثلة في العقل على باقي المجتمع. وكانت إيدانة بيرك لرجال الأدب، الذين كانوا «مولعين بتمييز أنفسهم»، و«نادراً ما يتحاشون الابتكار»، ومعجبين للغاية «بأفكارهم حول حقوق الإنسان إلى درجة أنهم نسوا وبشكل كامل طبيعته»، نموذجاً عن الانتقادات المكررة للمثقف الأناني المثير للمشكلات. لم يكن المثقفون محبوبين في معظم الحالات، إلا أنهم يؤخذون بكثير من الجدية.

مثلت معاداة النزعة الثقافية تياراً قوياً في الثقافة الأميركية. يقدم كتاب ريتشارد هوفستادتر «معاداة النزعة الثقافية في أمريكا» سرداً واضحاً لنفوذ هذا التيار. البيوريتاني جون كوتون الذي كان يقيم في نيواينغلند حذر في عام 1942: «كلما كنت أكثر ثقافة وذكاء، كلما



كنت أكثر قدرة على خدمة الشيطان». كانت تلك المشاعر المعادية للأشخاص الأذكياء مدفوعة بالخوف من أن المثقف من المرجح أن يتجاوز الأعراف التقليدية.

ومنذ أيام بيرك والمثقفون يلامون على كل آفة تصيب المجتمع. اتهم العديد من النقاد اليمينيين في فرنسا مارسيل بروسست على تسببه وبمفرده بالانحطاط الأخلاقي في الجمهورية الثالثة. وفي بريطانيا كانت جماعة بلومزبري تُمثل على أنها مجموعة من الأوغاد في الخيال التقليدي؛ واتهمت الجماعة بزور الشك في رسالة بريطانية الإمبريالية. وكانوا يصورون على أنهم المستفيدون المتحللون من عظمة بريطانية، ويستمتعون بالتدمير المنهجي للقيم للكافة التي تشكلت منها هوية الأمة. وفي الولايات المتحدة كان المثقف النيويوركي يتهم باستيراد أفكار غير أمريكية إلى البلاد. وفي أثناء ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، عدّ راديكالو الجامعات مسؤولين عن الانحدار الأخلاقي لأمريكا.

وكان المثقفون يتعرضون للشجب بوصفهم طفيليين غدارين، أو في أحسن الأحوال حمقى مفيدتين. وكان نقاد هذا الغدر مدفوعين باعتقادهم أن الفوضى الاجتماعية والانحطاط الأخلاقي كانت التبعات المترتبة على التأثير الكبير الذي يمارسه المثقفون الدماغوجيون على الجماهير التي تصدقهم. إن العرض الأكثر منهجية لنظرية المثقف صاحب الدوافع السياسية الذي يؤثر في الرأي العام والذي يؤدي إلى دمار المجتمع يقدمه كتاب جوليان بيندا خيانة المثقف. يدين هذا الكتاب، الذي نشر في عشرينيات القرن العشرين،

المتقنين؛ لتخليهم عن دورهم بوصفهم حماة للحقيقة مقابل الارتباط السياسي. ويتهم المتقنين «بتقديس» السياسة وأنهم مسؤولون عن إثارة العواطف السياسية. يزعم بيندا أنه عندما يشارك المثقفون في الحركات السياسية، فإنهم يسبقون شيئاً من التماسك على العواطف ويحولونها إلى إيديولوجيات خبيثة. يكتب بيندا: «إن عصرنا هو بالفعل عصر التنظيم الفكري للكراهيات السياسية»¹⁶. طغى هذا الربط بين المثقفين والإيديولوجيات على عدد كبير من الدراسات التي كتبت عن الحركات الجماهيرية المتمردة في القرن العشرين.

بحلول مرحلة الحرب الباردة، كان تقليد اتهام المثقفين بالتطرف السياسي قد أصبح راسخاً. يطغى الاعتقاد بأن المثقف يحمل مسؤولية كبيرة عن نشوء الشمولية على مقالة آرثر كويستلر «الإنجلجنسيا» التي نشرت عام 1944. تنبأ كويستلر: «إننا مقبلون على عصر تزدهر فيه الدول الإدارية الكبرى» حيث «يفرض على الإنجلجنسيا أن تصبح قطاعاً خاصاً في الخدمة المدنية»¹⁷. ورأى جوزيف شومبيتر في المثقف تهديداً لبقاء الرأسمالية. في كتابه الذي نشر في أربعينيات القرن العشرين، الرأسمالية، والاشتراكية والديمقراطية، جادل شومبيتر بأن المثقف مسؤول عن تأسيس «مناخ معادٍ للرأسمالية»، وتكررت مثل هذه المجادلات في الستينيات، عندما عزي الإحساس الطاغى بالفوضى والتحلل الأخلاقي إلى أفعال المثقف الراديكالي ذي الدوافع السياسية.

ولم يمض وقت طويل قبل أن تدعي إدانان الإرث التخريبي للمثقفين بأن هذه المجموعة القوية كانت قد أصبحت، أو على وشك أن تصبح،

طبقة جديدة. جادل بيرتراند دي جوفينيل في هجومه العنيف على المثقفين في أثناء الحرب الباردة بأن الإنتلجنسيا كانت تشكل أكبر تهديد للمجتمع: «لقد ساد افتراض ولوقت طويل بأن المشكلة الكبرى للقرن العشرين تتمثل في مكان العامل الصناعي الذي يكسب أجراً في المجتمع؛ ولم يتم توجيه الكثير من الانتباه إلى نشوء طبقة مثقفة واسعة، التي قد يكون مكانها في المجتمع مشكلة أكبر»¹⁸. وفي أثناء عقد من الزمن كانت هذه المجادلة قد أصبحت هي الرأي السائد. وبالتأكيد فإنه بحلول الستينيات أصبح الجميع يعلقون بأنه لم يتم الانتباه بشكل كافٍ لدور المثقف. وتبعت ذلك مباشرة نقاشات مستفيضة عن كيف أن الإنتلجنسيا حلت محل البروليتاريا بوصفها الطبقة الثورية الحقيقية.

قد يكون أكثر النصوص التي تصدت لقضية المثقف في السبعينيات ومطلع الثمانينيات أهمية هو كتاب ألفين غولدر «مستقبل المثقفين ونشوء الطبقة الجديدة». ادعى غولدر أن هذه الطبقة الجديدة كانت «أكبر قوة تقدمية في المجتمع الحديث وفي أي تحرر إنساني ممكن في المستقبل المنظور»¹⁹. كانت فكرة أن المثقفين يشكلون نخبة تقدمية حميدة الصورة المقابلة للإدانة اليمينية للطبقة الجديدة بوصفها قوة طفيلية تدميرية. إلا أن كلا الموقفين أسبغ على المثقف قوة كبيرة في التأثير في مسار الأحداث. وبالنظر إلى الماضي من منظوره اليوم، فإن المرء يُدهش من الأهمية المبالغ بها التي أسبغت على دور المثقف في الماضي. تبدو الصورة الكاريكاتيرية التي رسمها غولدر عن نشوء طبقة جديدة من المثقفين اليوم مفارقة لا يمكن فهمها. وكذلك

الإدانات القوية لمتقف عصر التنوير. يواجه المرء بين الحين والآخر تحذيراً مكرراً من طموح المثقفين إلى تغيير العالم. يحذر أحد المفكرين المعاصرين المعادين للتنوير: «لا يجدر بنا الافتراض بأننا شهدنا نهاية موضة إعادة ترتيب العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ضوء مقتضيات النظرية»²⁰. إلا أن مثل هذه التحذيرات تبدو متنافرة بشكل غريب مع المناخ الثقافى لعصرنا هذا.

عدد قليل من الناس ينظر اليوم إلى المثقف بوصفه متعصباً خطيراً يهدد النسيج الأخلاقي للمجتمع. لا شك في أن هناك حفنة من المفكرين المحافظين على الجانب الخاسر من حروب الثقافة ممن يعترضون على سلوك الأكاديميين اليساريين، غير أن تركيزهم ينصبّ على الممارسات السياسية في الجامعات وليس على المثقف. في الواقع فإن هدفهم هو غالباً الإداري الجامعي الكذوب وليس المفكر. ولا تزال تسود الأفكار المعادية للمثقفين هنا وهناك، لكنها تفتقر إلى بؤرة محورية ولا تحرض أي مناظرة جادة. ومن حيث وجود أي نقاش معاصر جاد عن المثقف، فإن الدافع إليه هو القلق حول ما حل به. في الماضي كان سؤال «أين المثقفين؟» كان سيُرد عليه بالإشارة إلى مختلف المناطق الجغرافية بباريس، برلين، فيينا، سانت بيتربيرغ، بلومزبري، قرية غرينيتش بوصفها مواقع للخمائر الفكرية. أما اليوم فإن الرد سيجد صعوبة بالإشارة إلى أي من هذه الأماكن؛ والجامعات يقطنها أشخاص أذكاء رفيعو التعليم يعلمون بوصفهم أكاديميين محترفين وليس بوصفهم مشاركين في الطبقة المثقفة.

قليلاً ما يُمثّل المثقفون على أنهم قادرون على فعل الكثير. قد يكون أكثر النصوص إشكالية فيما يتعلق بالمثقف في السنوات الأخيرة هو كتاب راسل جي كوبر آخر المثقفين. يستكشف هذا الكتاب اختفاء المثقف من الحياة العامة ويحاول تحليل أسباب التأثير المتضائل للمثقف على المجتمع. إن حقيقة ظهور العديد من المقالات الموسومة بـ «ما هو المثقف المعني بالشأن العام؟» يوحي بأن نصفه يشير إلى نوع مهدد بالانقراض. وعندما تطرح أسئلة مثل «من هم؟» و«أين هم؟»، يجدر بنا أن نذكر أنفسنا بما نعنيه بمفهوم المثقف.

ما الذي يكون المثقف؟

يتم تعريف المثقفين غالباً طبقاً لمهنتهم. يُشار في بعض الأحيان إلى أن الأشخاص الذين يعملون بأدمغتهم يقومون بعمل فكري، ولذلك فني المجتمعات الغربية، حيث تتناقص باستمرار نسبة الأشخاص الذين يعملون بأيديهم، فإن ملايين الناس يؤدون عملاً فكرياً. إضافة إلى مرشحين واضحين مثل المدرسين، والمحامين، والعلماء، هناك جيش حقيقي من موظفي القطاعين لعام والخاص الذين يتم توظيفهم للقيام بأعمال ذهنية. غير أن أولئك العاملين في مهن غير يدوية ليسوا مثقفين بالضرورة. كما يجادل رون إيرمان، من المهم التمييز بين أداء العمل الفكري من جهة والمثقفين من جهة أخرى؛ لأن هوية المثقفين «تشكل حول أنواع من الاهتمامات تختلف عن تلك المرتبطة بالموقع الاجتماعي»²¹. لا يتم تعريف المثقفين طبقاً للأعمال التي يقومون بها،

بل بالطريقة التي يقومون بها بأفعالهم، والطريقة التي ينظرون إليها إلى أنفسهم، والقيم التي يعتنقونها.

إن كون المرء مثقفاً لا يتعلق بكيفية كسبه لرزقه. يجادل كوسر بأن المثقفين «يعيشون من أجل الأفكار ولا يعيشون منها». وتتردد هذه الفكرة عند إيرمان عندما يقول: إنه «يمكن للمثقفين أن يعيشوا من أفكارهم، لكن ينبغي أن يعيشوا من أجلها أيضاً»²².

بالرغم من أن فكرة العيش من أجل فكرة يمكن أن تبدو للقارئ مثالية على نحو بائس، إلا أنها كانت المحرك الدافع لسلوك ملايين اناس في أثناء القرون الماضية. ويمكن أن يقال بالفعل: إنه مهما كانت التحفظات التي يمكن أن تكون للمرء حيال مثل هذه المثالية، فإنها ألهمت العديدين لرؤية الإمكانيات الإبداعية الكامنة وراء الوقائع الرصينة للحياة اليومية. حتى كون المرء خبيراً أكاديمياً لا يؤدي مباشرة إلى أن يصبح مثقفاً. كما علق عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو: «كي يتمكن المنتجون الثقافيون من اكتساب لقب مثقف، ينبغي عليهم استعمال تجربتهم وسلطتهم المحددة في مجالهم الثقافي الخاص في نشاط سياسي يقع خارج هذا المجال»²³. من منظور بورديو، فإن شخصاً كإنشتاين يمارس سلطته الفكرية عندما يخطو خارج مجال خبرته التخصصي (الفيزياء) ويعلق على الشؤون السياسية العالمية. إن الإحساس بالهوية بالنسبة لهؤلاء الأشخاص مستمد جزئياً من المشاركة في مشروع يتجاوز أي مهنة أو مصلحة محددة.

يجادل بومان بأن «المعنى القصدي - لكون المرء مثقفاً - هو الارتقاء فوق الانشغال الجزئي الذي تفرضه مهنته أو الجنس الفني الذي يعمل فيه والمشاركة في القضايا العامة مثل الحقيقة، والحكم والنزق السائد في عصره»²⁴. ليس من المفاجئ أن تتمثل إحدى أهم القيم التي يشيد بها المثقفون في التمتع بالاستقلال في حياتهم. اعتقد غولدر أن الاستقلال يمثل طموحاً جوهرياً بالنسبة للمثقفين، ملاحظاً أن «أعمق نية في ثقافة المثقفين وإيديولوجيتهم هي افتخارهم باستقلالهم»²⁵. إن رغبة المرء في امتلاك حرية لفعل طبقاً لمعتقداته وأفكاره تشكل واقعاً قوياً في سلوك المثقف. ولهذا السبب يعيش المثقفون في كثير من الأحيان في حالة من التوتر الإبداعي حيال القواعد والقيود التي تفرضها المؤسسات السائدة على الحياة اليومية.

كي يشعر المرء ويتصرف بوصفه مثقفاً، فإن ذلك يتطلب على الأقل ابتعاداً ذهنياً عن أعراف الشؤون اليومية وضغوطها. لاحظ إيرمان «كلما كان العمل الفكري محكوماً بقوى، وقواعد، وإجراءات خارجية، ومشرفين وما إلى ذلك، تضاعل إحساس المرء بأنه مثقف»²⁶. إن تطلعات المثقف يدفعها فهم بأن الأفكار لا يمكن تطويرها طبقاً لجدول معين أو بموجب أوامر وتعليمات مؤسسة معينة. وثمة إدراك عام بأن درجة من الابتعاد أمر جوهري لاكتساب منظور أوسع وتحقيق الإبداع. يمكن للمثقفين أن يكونوا موظفين في مؤسسات، لكن إذا بقي خيالهم وعملهم محصوراً في هذه المؤسسات فإنهم سيصبحون ببساطة خبراء

وتكنوقراط. جادلت دراسة أميركية مهمة نشرت في ستينيات القرن العشرين أنه إذا انغمس المثقفون كلياً في «المؤسسة»، فإن ذلك «سيعني نهاية المثقفين، كما عرفهم التاريخ الحديث». وحذر المؤلف من أن مثل هذا التطور لن يخدم مصالح أمريكا؛ لأنه «فقط إذا تمكن المثقفون من المحافظة على ذكاء نقدي، وحافظوا على مسافة من المهام اليومية، وطوروا انشغالاً بالقيم الكلية بدلاً من القيم الطارئة والعادية، يمكنهم عندها أن يخدموا المجتمع بشكل كامل»²⁷.

حتى في أفضل فترات التطور الثقافي، فإن علاقة المثقفين بالوضع القائم تكون علاقة متوترة. هناك بالطبع مثقفون سلطويون يخدمون الطغمة المسيطرة. غير أن هؤلاء يتحولون بسرعة إلى ناطقين أيديولوجيين واعتذاريين ويغتربون عن الأنشطة الفكرية.

إنهم يتنازلون بسرعة عن سلطتهم بوصفهم مثقفين. يصعب تخيل كيف يمكن دفع العمل الفكري إلى الأمام بطريقة امتثالية بالكامل. المثقفون المحافظون والراديكاليون على حد سواء يفسرون العالم عبر عدسة المبادئ التي تكون في حالة توتر دائم مع الشؤون العملية للمجتمع. تنتقد إحدى المجموعات الحالة السائدة للأمور لدفع المجتمع إلى الوراء، في حين تحاول المجموعة الأخرى تغيير بعض وجوهه.

يتطلب الدور الإبداعي للمثقف الابتعاد عن أي هوية أو مصلحة محددة. لقد استندت سلطة المثقف، منذ مطلع الحداثة، إلى الادعاء بأنه يعمل ويتحدث نيابة عن المجتمع بأسره. يمكن النظر إلى المثقف



بوصفه تشخيصاً لإرث التنوير، وقد سعى تقليدياً إلى تمثيل وجهة نظر العالمية. يلاحظ بيير بورديو أن المثقفين «كُونوا أنفسهم على النحو الذي هم عليه عبر اعتناقهم للعالمية ورفضهم للخصوصية»²⁸. وعبر تحدثهم دفاعاً عن القيم التي تتجاوز التجربة الخاصة العقل، العقلانية، العلم، الحرية يعيد المثقفون التأكيد على قوة المشروع التنويري واستمراريته.

بصرف النظر عن المزاج الفردي، فإن المفكرين يُفرض عليهم في كثير من الأحيان تحدي الأعراف والآراء المعاصرة. ويتم احتواء احتمالات مثل هذا الصراع داخل المنظور العالمي للقيم والمفاهيم، الذي يتناقض مع الأعراف والتقاليد التي تبنيها مجموعات معينة على نحو براغماتي كي توجه حياتها. كما لاحظ إدوارد سعيد فإن العمل على أساس مبادئ العالمية أمر ينطوي على مخاطرات. «العالمية تعني أن يأخذ المرء المخاطر من أجل المضي إلى ما وراء أشكال اليقين السهلة التي توفرها لنا خلفيتنا، ولغتنا، وقوتنا التي تحجب عنا في كثير من الأحيان الآخرين»²⁹؛ ولأن المثقفين ذوي الطبيعة العالمية يطرحون في كثير من الأحيان أسئلة مقلقة حول الأعراف والافتراضات السائدة، ينظر إليهم على أنهم لا منتمون عالميون غير وطنيين. ويشكل نقد أرويل للمثقفين الذين يخجلون من قوميتهم نموذجاً لهذا المنظور³⁰. إن الفرد الذي يحتفظ بمسافة عما حوله، والذي لا يمثل للأعراف السائدة، كان جزءاً من الشكل النمطي لمثقف القرن العشرين.

لا يعتقد كل المفكرين المنظور السياسي والفكري لحركة التنوير. لقد تميّز المفكرون المحافظون على مر السنين بعدم استساغتهم لقيم

التنوير. لكن مجرد سعيهم للدفاع عن نسختهم من التراث ضد مزاعم التنوير، كان يحتم عليهم تجاوز تجربتهم المحددة وتبني منظور أكثر عالمية. إن نقدهم هو نتاج للتنوير بقدر ما يشكل التنوير موضوعاً لضغينتهم. إن المثقفين المحافظين هم نتاج للتنوير تماماً كما نظراًؤهم الأكثر راديكالية.

أن يكون المرء مثقفاً يعني أن ينخرط اجتماعياً. يصعب على المرء أن يعيش من أجل الأفكار، ولا يحاول أن يؤثر في مجتمعه. والأمر لا يتضمن فقط الانخراط في النشاط الذهني الإبداعي، بل أيضاً افتراض مسؤولية الاجتماعية واتخاذ موقف سياسي. لا يميل كل المثقفين إلى الانخراط الاجتماعي، غير أن المثقفين بوصفهم مجموعة يجذبون إلى الحياة السياسية. يبين ريجيس ديبراي في دراسته للمثقفين الفرنسيين أن ما يعرف المثقف ليس مستواه التعليمي بل «مشروع التأثير في الناس». ويصف ديبراي هذا الاتجاه بوصفه مشروعاً أخلاقياً ذا طبيعة سياسية في المقام الأول³¹. وهذا المشروع ليس بالضرورة مشروعاً سياسياً حزبياً، بل مشروع مستعد للانخراط في معركة لكسب العقول والقلوب.

ثمة تعريفات عديدة للمثقفين. يوصفون أحياناً بأنهم المدافعون عن المعايير الثقافية، وأنهم مجموعة من النقاد والمنشقين الأبديين، وبوصفهم ضمير المجتمع. يعرف لويس كوسير المثقفين بأنهم «رجال لا يبدو أنهم يرضون ألبتة عن الأشياء كما هي». إلا أنه يفهم أن أكثر الطرق إثارة في فهم المثقفين هي تلك التي تتعلق بعالم الأفكار³². يعتقد العديد من المراقبين أن أحد الملامح المميزة للمفكر هي قدرته



على الانخراط في القضايا الأوسع لعصره، يجادل بومان بأن «المعنى القصدي لكون المرء مثقفاً يتمثل في الارتقاء فوق انشغال المرء الجزئي بمهنته أو الجنس الفني الذي يمارسه والانخراط في القضايا العامة مثل الحقيقة، والحكم والذوق السائد»³³. وطبقاً لإدوارد سعيد فإن المثقفين يضطلعون بدورهم عبر تمثيل وجهة نظر جمهور أوسع: «أنا أجادل بأن المثقفين هم أفراد يضطلعون برسالة في فن التمثيل، سواء كان ذلك عبر التحدث، أو الكتابة، أو التدريس، أو الظهور على التلفاز»³⁴. يقدم سيمو ليبسيت أحد أكثر تعريفات المثقف بساطة وفائدة. طبقاً لليبسييت، فإن المثقفين هم «كل أولئك الذين يبدعون، ويوزعون، ويطبّقون الثقافة، أي النظام الرمزي للإنسان، بما في ذلك السفن، والعلم والدين»³⁵ مهما كان التعريف الذي نفضله، فإن كون المرء مثقفاً ينطوي على علاقة حميمة بالانشغال والأفكار وبالحقيقة.

لا يعتق كافة المثقفين بالطبع الفلسفة نفسها أو وجهة النظر السياسية نفسها. إنهم يعيشون من أجل أفكار مختلفة. لكن بالرغم من الاختلافات التي قد تكون أحياناً مريرة وواسعة، فإن المثقفين تحذوهم رغبة مشتركة بالتأثير في العالم. إن لديهم، على وجه الخصوص، التزاماً مشتركاً بأن يكونوا صوتاً ناقداً للحقيقة كما يرونها. جادل المعلق الاجتماعي الأميركي البارز سي رايت ميلز أن سياسة المثقف هي أولاً وقبل كل شيء «سياسة الحقيقة». وتبنى وجهة النظر القائلة: إنه عبر البحث عن الحقيقة، فإن المثقف يحاسب

السلطات الحاكمة. «مهما كانت الأدوار الأخرى للمثقف، فهو حتماً بين أولئك الذين يطرحون أسئلة جادة، وإذا كان مثقفاً سياسياً، فإن أسئلته تستهدف الفئات الحاكمة»³⁶.

ما من شك في أن صورة المثقف كما تم تقديمها آنفاً تقدم نسخة مثالية عن عمل هذه المجموعة. طوال القرون الثلاثة الماضية، لم يكن معظم المثقفين يسخّرون كل وقتهم للجهاد من أجل الحقيقة. كغيرهم من الناس، فإن المثقفين كثيراً ما يساومون، وينسحبون تحت الضغط ويمتثلون للمناخ الثقافي السائد. يمكنهم أحياناً أن يتخلوا عن استقلالهم مقابل حياة سهلة، وفي بعض الأحيان تكون فاعليتهم قطاعاً يغطي لهائهم لتحقيق المصلحة الشخصية. لكن بغض النظر عن خصائص بعض المثقفين ومسيرة حياتهم الشخصية والمهنية، فقد أدوا بوصفهم مجموعة دوراً مهماً في مساءلة الأعراف والتقاليد، وفي رفع حساسية المجتمع حيال المثل والقيم التي ساعدت في دفع التقدم الإنساني إلى الأمام.

اليوم يرتبط الدور المتمثل في الانشغال النقدي بالأفكار في كثير من الأحيان بما يوصف أحياناً بـ «المثقف التقليدي». إن حقيقة استعمال كلمة «تقليدي» في التعريف يشير إلى أن وجود هذا النوع من الأشخاص أصبح الآن عرضة للتشكيك. كما يتم تقديم الحقيقة في كثير من الأحيان على أنها تقتصر إلى السلطة، حيث إن الأشخاص الذين يدعون أنهم يبحثون عنها يعدّون مفارقة تاريخية لا حاجة لها. ولهذا السبب فإن الحاجة إلى دور «المثقف النقدي التقليدي» تتعرض للتشكيك. حتى المعلقين المتعاطفين مع ممارسة السلطة الفكرية يعتقدون أن «دورها

التقليدي تآكل». تقول كاترينا فريد جونسدوتير، وهي معلقة بارزة على الموضوع: «قد يكون علينا إعادة تقييم معنى وأهمية فئة المثقف التقليدي نفسها، إضافة إلى تحليل ظروفها المتغيرة»³⁷.

إذاً، ما هي التأثيرات التي جعلت المجتمع المعاصر بيئة غير مناسبة لبقاء ما يسمى بالمثقف التقليدي؟

المجتمع المعاصر والمثقف

لقد تمثلت بعض التغييرات البنوية المرتبطة بأقول نجم المثقف التقليدي في التأثير المتنامي للسوق على الحياة الفكرية، ومأسسة وحرفنة الحياة الفكرية، والقوة المتنامية لوسائل الإعلام وتلاشي الفضاء العام المتاح لممارسة الاستقلال. يدعي العديد ممن كتبوا حول الموضوع أن القوة الدافعة الرئيسة وراء تحول المشهد الفكري، تتمثل في التوسع الكبير للجامعات. طبقاً لهذا المنظور، فإن النزعة الاحترافية في الجامعات وجهت ضربة خطيرة لاستمرار حيوية الحياة الفكرية³⁸.

لقد كان صعود نجم الخبراء والمهنيين سمة مهمة من سمات المجتمعات الرأسمالية لبعض الوقت. منذ خمسينيات القرن العشرين، أصبحت هذه النزعة واضحة جداً، وتمارس الآن نفوذاً كبيراً حول كيفية إدراك السلطة. يجادل أولئك الذين يصورون المثقفين «كطبقة جديدة» بأن الاحترافية أصبحت تؤدي دور الأيديولوجيا التي تميّز النخب الحاكمة. من هذا المنظور، يمكن الخروج باستنتاج مفاده أن المثقفين أصبحوا أكثر قوة مما كانوا في العصور السابقة. تم دفع هذه المقاربة بشكل منهجي في السبعينيات من قبل غولدرن الذي ادعى أن

«الاحترافية تقوم وبصمت بتنصيب الطبقة الجديدة بوصفها نموذجاً للسلطة الفاضلة والمشروعة التي تؤدي رسالتها بمهارة تقنية مسخرة نفسها لخدمة المجتمع بشكل عام»³⁹.

من المشكوك فيه أن صعود السلطة الاحترافية قد عزز من نفوذ المثقفين. يتركز العمل الذهني للشخص الاحترافي على تقديم الخدمات، وليس على ترويج الأفكار، من حيث إن الأفكار تؤدي دوراً في إنجاز مهمة احترافية، فإنها لا تتمتع بالقيمة لذاتها، بل كوسيلة من أجل تحقيقها. إن ما يعرف المثقفين ليس أداء العمل الفكري أو أي وظيفة اقتصادية محددة. يتكون المثقفون عبر علاقتهم بالمجتمع وتطويع الأفكار. وبغض النظر عن مهنتهم، فإنهم لا يمارسون دورهم بوصفهم مثقفين عبر وظائفهم.

على النقيض من نظرية الطبقة الجديدة، فإن توسع الاحترافية قد يوجد عقبات جديدة أمام ممارسة الأنشطة الفكرية. تروج الاحترافية قيماً وأنماط سلوك قد تكون غير منسجمة مع قيم وأنماط سلوك المثقف. إن أنشطة من قبيل تقديم نقد للوضع الراهن، وأداء دور ضمير المجتمع، أو السعي لاكتشاف الحقيقة بصرف النظر عن التبعات، ليست الأنشطة التي يتضمنها عمل الشخص الاحترافي. كما تعلق كاترين فريدجونسدوتير، فإن الخبير الاحترافي قد يكون مثقفاً نقدياً، لكن «لا يتوقع منه بالتأكيد أن يتصرف على هذا الأساس في دوره بوصفه خبيراً»⁴⁰. وبالفعل، فإن أنماط السلوك المرتبطة بالخبير الاحترافي تختلف تماماً عن الطريقة التي يعمل بها المثقفون. ولذلك



يعتقد العديد ممن كتبوا حول هذا الموضوع أن الاحترافية تمثل التهديد الأهم الذي يواجه المثقف. إن عدم التوافق بين روح الاحترافية وروح المثقف عبّر عنه إدوارد سعيد بقوله:

ما أعنيه بالاحترافية أن يفكر المرء في عمله مثقفاً كشيء يقوم به لكسب رزقه، بين الساعة التاسعة والساعة الخامسة وإحدى عينيه على الساعة، والثانية على ما يعد سلوكاً سليماً، وألاً يهز المركب، وألاً يخرج على القيود وأنماط السلوك المقبولة، وأن يجعل نفسه قابلاً للتسويق والتقديم، ومن ثمّ ألا يكون إشكالياً ولا سياسياً وأن يكون «موضوعياً»⁴¹.

حالما يتحول العمل الفكري إلى عمل احترافي، فإنه يفقد استقلاله وقدرته على طرح الأسئلة الصعبة على المجتمع. وبدلاً من ذلك فإنه يكتسب وظيفة إدارية وتكنوقراطية.

المفارقة هي أن تنامي الطلب على العمل الفكري بحد ذاته أوجد عقبات جديدة أمام ممارسة النشاط الفكري. لقد شجع ازدهار سوق الأفكار حرفنة العمل الفكري. وكما لاحظ إيرمان، فعبر نقل العمل الفكري من هامش المجتمع إلى مركزه فإن السوق اكتسب تأثيراً غير مسبوق على الحياة الفكرية. وكانت نتيجة هذه العملية هي مأسسة العديد من الوظائف المرتبطة بنشاط المثقف.

لقد أصبحت المؤسسات والعمليات التي أدت دائماً دوراً تكوينياً بالنسبة للمثقف - الجامعة، الفضاء الأدبي والسياسي العام، وخصوصاً فيما يرتبط بالصراعات الثقافية والطبقية - في المجتمعات الحديثة أكثر مأسسة وحرفنة وتجارية. حتى دور الناقد الاجتماعي، وهو دور مركزي للدور التقليدي للمثقف، تمت مأسسته إلى حد أصبح فيه «المثقف» ضيفاً دائماً على برامج المقابلات التلفزيونية والصفحات «الثقافية» للجرائد الجادة⁴².

وهكذا، وبالرغم من أن العمل الفكري أصبح أكثر حضوراً مما كان في الأزمنة السابقة، فإن هذه الوظائف تؤديها المؤسسات وموظفيها المختصون ولا يؤديها المثقفون. هؤلاء المثقفون الذين يحاولون إيصال أفكارهم عبر وسائل الإعلام يتحولون في كثير من الأحيان إلى «رؤوس متحدثة» في خدمة البرنامج الذي يظهرون فيه. وغالباً ما يتم قبولهم عندما يقدمون العبارات الموجزة الملقطة، إضافة إلى التسلية والترفيه.

إن لمأسسة العمل الفكري أثراً كبيراً على الطريقة التي تتفاعل بها الأفكار مع المجتمع. إن سلطة المثقفين، عندما يكونون متخصصين وخبراء، وحتى عندما يكونون خبراء أكاديميين، لا تركز على جودة أفكارهم، بل على خبرتهم. تصبح اللغة التي يتحدثونها تقنية وتخصصية، وليست عامة يفهمها جمهور العامة. تعكس اللغة الجديدة للخبير الأكاديمي أسلوب حياة مسخر لتخصص ضيق. وعبر هذه العملية فإن محتوى النشاط الفكري بعد ذاته يتغير. لقد لفتت



فريد جونسون وتير النظر إلى كيف أن أنشطة مثل النقد الأدبي أصبحت تقريباً «نشاطاً احترافياً يقتصر في الغالب على أشخاص مدرّبين أكاديمياً». وهي تزعم بأن هذا قد غير شكل هذا النشاط ومحتواه، بحيث إن الناقد الأدبي الذي لا يتمكن من متابعة الأزياء الجديدة في النقد الثقافي لا يتوقع أن يستمر طويلاً في مهنته⁴³.

لقد أدى التوجه الواضح نحو حرفنة الحياة الفكرية ببعض الذين يكتبون في الموضوع إلى التشكك في مدى إمكانية استمرار دور المثقف المستقل. كما يشار إلى أن ضغط السوق يؤثر بشكل مباشر على مجال الأفكار. إن مستوى رفيعاً من التخصص يشجع على أن تصبح المعرفة أكثر تشظياً، مما يضعف من قدرة المثقف على التفاعل مع المجتمع بكليته. في تطرقه لهذا الموضوع، يشير إيرمان إلى «السلطة التي تمارسها قوى السوق في تحديد مستوى الإنتاج الثقافي»⁴⁴.

ما من شك في أنه يمكن أن يكون لسلطة قوى السوق تأثير كبير على محتوى الإنتاج الثقافي. لكن ليس السوق هو الذي أدى إلى تراجع المثقف. في العصور السابقة، ازدهر المثقفون عبر رد فعلهم ضد السوق، أما اليوم فإنهم يحاولون على الأرجح تحقيق طموحاتهم عبره. إن فكرة أن المثقفين كانوا دائماً ضعيفة ظروف خارجة عن سيطرتهم تتجاهل حقيقة أنهم كانوا دائماً حريصين على اقتناص الفرص المتاحة عبر مؤسسة العمل الفكري. لقد أدى المثقفون دوراً رئيساً في تشجيع التخصصات والمجالات الأكاديمية المستقلة. لقد تم التخلي عن المثالية التي حلت محلها البراغماتية والمقاربة الأدائية للحياة.

لقد تم الاستغناء عن الاستقلال الفكري مقابل المطالبة بالاعتراف والقبول المؤسسي. وهذا التطور لافت على نحو خاص في المناظرات التي تتناول غياب المثقف العام. لقد تحولت المناظرة التي بدأت بوصفها محاولة لتفسير تراجع الاستقلال الفكري إلى مطالبة من قبل بعض المشاركين فيها بأن تساعد المؤسسات والهيئات العامة في إنقاذ المثقف العام من الانقراض. وقد استجابت بعض الجامعات الأميركية إلى هذه المخاوف كما لو كانت فرصة في السوق، فأطلقت برامج للدراسات العليا صممت لتدريب المثقفين العامين. ودعا آخرون المؤسسات العامة لفعل المزيد لتشجيع نشاط المثقف للتعبير عن هذا الاتجاه، وقد كتب أكاديميان أميركيان عن هذا السلوك قائلين: وأخيراً، ندعو إلى مزيد من الاعتراف المؤسسي والمادي بهذه الأشكال من العمل الفكري العام. وهذا يتضمن تعزيز العمل العام وإسباغ قيمة كبيرة عليه. على سبيل المثال، بالنسبة لأولئك الذين يسعون للتعلم في مجال الخدمة العامة، يمكن للمؤسسات أن تقدم أو تطلب التدريب أو منح الشهادات، وأن تشرك أعضاء الهيئة التدريسية كافة في شكل من أشكال تعلم الخدمة، وأن تمنح أولئك الذين ينغمسون في العمل العام مزيداً من الإجازات أو تخفف عنهم بعض الأعباء التدريسية⁴⁵.

إن المطالبة بالتصديق على العمل الفكري العام تشير إلى مدى تراجع فكرة الاستقلال الفكري لتحل محله روح الاحترافية. عندما تصبح الهوية الفكرية معتمدة على القبول المؤسسي، فإنه لا يعود هناك شيء مشترك بينها وبين التطلع الكلاسيكي نحو الاستقلال الفكري.



من الصعب تفسير الذهنية «الاعتمادية» لمفكر اليوم المحترف على أنها نتيجة مباشرة لسلطة قوى السوق. لا شك في أن توسع السوق أمام المحترفين والخبراء قد أثر في التطورات، لكنه لا يمكن أن يفسر الاستعداد الذي أظهره الناس في تبني أنماط سلوك لا تتسجم مع دور المثقف التقليدي. من أجل فهم سبب حدوث ذلك، من الضروري أن نبحث عن تفسيرات تتجاوز التغييرات البنيوية التي تؤثر في القيام بالعمل الفكري.

تراجع قيمة دور المثقف

بالرغم من أن للتغيرات التي تطرأ على بنية المجتمع مضامين مهمة فيما يتعلق بفهم نهاية المثقف، فإنها لا تفسر التراجع في قيمته. في وقت تزايد فيه الطلب بشكل كبير على التعليم، والمعرفة، والعمل الفكري، لماذا تظهر الكثير من علامات الاستفهام على بقاء واستمرار المثقف النقدي التقليدي؟ مهما كانت الإجابة عن هذا السؤال، فمن الواضح أن معظم الإسهامات المقدمة في هذا الموضوع تسلم بزوال المثقف النقدي التقليدي، وتشغل بدلاً من ذلك في محاولة إيجاد دور جديد للمثقف.

يعتقد على نطاق واسع أنه فيما يسمى بحقبة ما بعد الحداثة، حيث تعرضت الخصائص الرئيسية للتوير للمساءلة، فإن دور المثقف النقدي تراجع على نحو حاد. حيث إن العديد من المثل المرتبطة بممارسة السلطة الفكرية - البحث عن المعرفة، وتحكيم العقل أصبحت عرضة للتشكيك، فإن عمل المفكر فقد بعض جاذبيته الثقافية. إن تراجع الإيمان بقوة التفكير العقلاني أضعفت إلى حد بعيد مكانة المثقف. لقد

حل محل النظرة الشاملة الى العالم، التي كان يعتقد أنها تؤثر في تفكير المثقف الكلاسيكي، الاعتقاد أن مثل هذه النظرة الواسعة تتجاوز قدرة الخيال البشري.

ونتيجة لذلك فقد أعطي للمثقف دور أكثر تحديداً مما كان له في الماضي. حتى أولئك الذين يحتفظون بإطار مرجعي إيجابي للمثقف النقدي يبدو أنهم يعتقدون أن هذه المرجعية يمكن أن تستمر فقط إذا عدلت بشكل جذري. يكتب إيرمان: «في حين أن سياقات نشوء هؤلاء المثقفين قد تكون ضاقت بشكل كبير، ومن ثمّ تضاعف نطاق الإمكانيات المتاحة لهم، فإن التقاليد التي تكوّن المثقف ما زالت أكثر من مجرد ذكرى متلاشية». لكن وبالرغم من المحاولات التطمينية بأن التقاليد المرتبطة بالمفكر «أكثر من مجرد ذكرى متلاشية»، يخلص إيرمان إلى رؤية متواضعة ومتشائمة الى حد بعيد لمستقبل العمل الفكري. «على الرغم من أن معناه تم تغييره بشكل شبه كامل نتيجة لما أطلق عليه الظرف ما بعد الحداثي، فإن مفهوم المثقف لا يزال يقدم مصدراً حياً يحتمل أن يتم اللجوء إليه كنقطة استقطاب للأجيال القادمة من المنشقين».

إن الاعتقاد أن «الظرف ما بعد الحداثي» قد حول فجأة النشاط الفكري بشكل جوهرى كان قد أحدث أثراً قوياً على الطريقة التي يفكر بها المفكرون في أنفسهم وفي أنشطتهم على عكس مفكر عصر النهضة الذي احتفى بالرؤية العالمية، فإن مفكري اليوم أكثر ميلاً للاحتفاء



بالهوية ذات الخصوصية. لدينا اليوم مثقفون إنكليزي، ومثقفون سود، ونسويون، ومثليون، ويهود. ونتيجة لذلك، لا تستند سلطة المثقف إلى القدرة على تمثيل الحقيقة، بل إلى القدرة على توكيد هوية مجموعة محددة أو تخصص محدد. لا ينبغي أن ينظر إلى التحول من التركيز العالي إلى التركيز الخصوصي بوصفه مجرد تنويع على سَلَم. إنه ينطوي على إعادة تعريف جوهرية للطموح الفكري من محاولة المضي إلى أبعد من التجربة الخاصة إلى الرغبة في توكيدها⁴⁶. هذا التوكيد تطغى عليه موجبات شديدة المحافظة ومعادية لأي مساءلة نقدية للمجتمع.

يجادل بومان بأن إحدى تبعات ما بعد الحداثة تتمثل في التحول الجوهرى لدور المثقف من مشرّع إلى مفسّر. يطلق المثقفون، عبر دورهم بوصفهم مشرعين، مقولات مؤثرة تحدث أثراً مباشرة على تشكيل الرأي العام. أما بدورهم بوصفهم مفسرين ما بعد حداثيين، فإن المثقفين يرون أن مهمتهم تتمثل في تيسير التواصل ترجمة المقولات التي تصاغ داخل تراث مجتمعي معين، بحيث يكونون مفهومين في منظومة معرفية تستند إلى تراث آخر⁴⁷.

لقد دافع ميشيل فوكو بقوة عن تضيق نطاق سلطة المثقف؛ فقد جادل بأنه وبحكم عدم وجود حقائق شاملة، فإن المثقفين لا يمكنهم أن يدّعوا بأن وظيفتهم هي نقل الحقيقة الشاملة. وادعى بأنه لا يمكن للمثقفين أن يطمحوا لأن يكونوا مثقفين شاملين، بل «محددين». لا يتوقع من المثقفين المحددين أن يطلقوا مقولات واسعة حول مشكلات



العالم - بل بوسعهم تسخير عملهم للمجالات التي يمتلكون فيها الخبرة الأوسع، وبذلك يحققون نتائج ملموسة.

تعكس الآراء التي يعتنقها أمثال بومان وفوكو تراجع معنويات معتنقي الإرث التنويري. لكن في حين يعترف بومان بأهمية أن يتمكن المفكرون من دعم «عملية التنوير»، فإن فوكو مبتهج بموت المثقف الشامل: بالنسبة لفوكو وغيره ممن ينجذبون إلى منظور ما بعد الحداثة، فإن الحقبة الحالية في الحياة الفكرية تمثل فعلياً تقدماً رئيساً على الماضي⁴⁸. وغالباً ما يصور كبح جماح الطاقة الفكرية على أنه تسوية مسؤولة وبراغماتية مع متطلبات عصر ما بعد الحداثة، كما أن هناك إحساساً ملموساً بالرضى عن التسويات لدى مفكري ما بعد الحداثة الممثلين لمتطلبات العصر.

المفكر الممتثل

كثيراً ما كانت تتتاب المثقفين في الماضي مخاوف إزاء محاولات تقويض مساعيهم وأنشطتهم. وكثيراً ما كان التدخل السياسي الذي يستهدف الاستقلال الفكري والضغط التجاري للسوق عرضة لانتقاد الإنتاجلنتسيا الراديكالية. أما اليوم فإن الأصوات الراديكالية باتت أقل ميلاً للانفعال بالهجمات الموجهة لحرية التعبير، والرقابة والمعرفة من أجل الأفكار. في حين أن النقد الموجه للمثقف النقدي التقليدي يصدر بشكل رئيس عن الدوائر السياسية اليمينية، فإنه بات من المرجح أن يصدر اليوم عن اليسار. وهكذا فإن مقدمة لمجموعة



من المقالات نشرت في كتاب مؤخراً تفرّض «المفهوم الأقدم والأقل مصداقية أخلاقية للمثقف»⁴⁹.

في أزمنة سابقة، كان المثقفون يواجهون المدافعين عن التقاليد والتراث مطالبين بالتغيير وإعادة تشكيل الحياة الثقافية. ولذلك السبب فقد كانت أعلى الأصوات المعارضة للمثقفين تصدر عن المدافعين عن التقاليد. أما اليوم فلم يعد ممثلو النزعة الثقافية المحافظة هم الذين يحتفون بالوضع القائم ويدافعون عنه. على العكس، فإن المثقفين اليمينيّين هم الذين يعبرون في كثير من الأحيان عن صدمتهم مما يجري في الحياة الثقافية ويعبرون عن رغبتهم برؤية تغييرات مؤسسية وثقافية جوهرية. إن الدفاع عن المؤسسات الثقافية والتعليمية الذي يضطلع به تقليدياً اليمين السياسي، تم تبنيه من قبل المحترفين والخبراء العاملين في المجال الفكري.

إن مزاجاً عميقاً من المحافظة الجديدة يصبغ المداولات المتعلقة بدور المثقف. لم يكن هناك أي مدة، منذ مطلع الحداثة، شعر فيها الناس بهذا القدر من القبول بالأدوار التي توزع عليهم. ويتضح هذا المناخ من الامتثال على نحو خاص بين الأكاديميين المحترفين. إن أي إحياء بأن الحياة الفكرية تواجه الاستنزاف، أو أي إحساس بالدونية لما وجد في حقبة سابقة، يُرفض بقوة على أنه محاولة مقبلة للعودة إلى عصر أسطوري سادت فيه النخبة الملهمة. وطبقاً لإحدى هذه المطالعات، «بالنسبة للمثقفين، فمن المؤكد أنه لا داعي لليأس، حيث إن الحياة التي تستمر في الجامعة، وأساليب التدريس التي تطبقها بين

الآثار، مختلفة وأكثر حيوية وصرامة مما حاولت أن تقنعنا به مختلف الأساطير القائلة بسقوط الحقيقة وموت المثقف». ولدى كاتب هذه النكلمات حتى بعض فتات التطمينات التي يقدمها لأولئك القلقين من تهميش تراث التنوير، ويكتب: «بالنسبة لأولئك الذين يفهمون ذلك، فإن قيم التنوير ما زالت توفر بقع ضوء نختار طريقنا على هديها»⁵⁰. يبدو أن العثور على «بقع ضوء» لتجنب التصدي لتراجع دور المثقف هي الاستجابة السائدة في معالجة هذه المشكلة.

بالسير على خطى فوكو، فإن العديد من المسهمين في هذه المناظرة يعبرون عن بهجتهم لتراجع قيمة المواقف التنويرية في الوقت الحاضر. يعبر أندرو روس عن رضاه؛ لأن الأجددة لم تعد تطغى عليها النظرة العالمية الشاملة - بالنسبة لروس، فإن «تلاشي المثقف العالمي الشامل» يمثل خطوة إيجابية إلى الأمام. ويحتفظ بازدرائه لأولئك الذين ما زالوا يتوقون إلى الثقافة الفكرية لحقبة سابقة، ويشجب ما يصفه بـ«الإجماع الرجعي لليسار واليمين، وكل منهما مخلص بثبات لسرد الانحطاط الخاص به». يرفض روس تهم التشطي و«الأكدمة» التي تطلقها أصوات يسارية تقليدية، كما يرفض التحذيرات من التردّي والانحطاط الأخلاقي التي يطلقها عرافو اليمين»⁵¹. طبقاً لهذه النظرة فكل شيء بخير. ما يعكر صفو هذا الوضع المثالي هم فقط أولئك الذين ينتقدون حرفنة الحياة الأكاديمية.

تستند النظرة الثقافية الامتثالية السائدة اليوم إلى افتراض أن السلطة التقليدية للمثقف لم تعد قابلة للحياة. يجادل مُعد مجموعة



من المقالات حول «المثقف العام»: «بالنسبة لأولئك الذين ينظرون بجدية إلى التشخيص القائل: إن الحياة العامة في الديمقراطيات الغربية لم تعد من النوع الذي يسمح بالادعاء بالسلطة العامة للمثقف، وبالانحطاط، مهما كان لونه السياسي، يشكل في الواقع استعراض مواقف أكثر مما يوفر إجابات»⁵². كثيراً ما يستقطب القلق العميق حيال الورطة التي تعيشها الحياة الثقافية الإجابة المترخية، وهو أن الأمور على ما يرام في الوسط الأكاديمي. وكثيراً ما يُرفض التشكيك في الممارسات الفكرية والتعليمية المعاصرة على أنه حنين لعصر ذهبي مضى. في الواقع فإن هذا الدفاع المشوب بالرضى عما هو قائم أمر غير مسبوق في التاريخ الفكري للحدثة. في القرن التاسع عشر، كانت حتى الشريعة الأكثر محافظة من الإنلجنتسيا تنتقد المناخ الثقافي السائد، وكانت كل شريعة من الإنلجنتسيا تسعى لتغيير وتحسين وتحويل وحتى إطاحة العالم الذي يواجهها. إن التباين بين هذا التراث من التوجه الثقافي من جهة والمواقف المستكينة التي تظهر اليوم، من جهة أخرى، يبرز الملامح المميزة للحياة الفكرية في مطلع القرن الحادي والعشرين.

تتمثل إحدى المصادقات المنهجية على الامتثال الفكري في كتابات بروس روبينز، أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة راتفرز. يظهر روبينز مؤيداً قوياً للاحترافية الأكاديمية؛ لأنه يعتقد أنها أوجدت مناخاً يرحب بالأصوات الجديدة للأقليات⁵³. يدعو روبينز إلى الاحترافية الأكاديمية على أساس أن اليسار الثقافي ازدهر واستفاد من هذه البيئة. ويتبجح قائلاً: «يعود الفضل إلى رد الفعل الذي شهدته عصر ريغن والذي تعلم

اناس عبره أن ليسار حضوراً قوياً في الحياة الثقافية الأميركية - بغض النظر عن إيجابية ذلك الحضور أو سلبيته. كما يتبجح روبينز «بالإنجازات الثقافية والمؤسسية ليسار» في الجامعات⁵⁴. إن روبينز لا يثيد فقط بنجاح اليسار في «ترسيخ نفسه في داخل المؤسسات التعليمية والثقافية الأميركية منذ ستينيات القرن العشرين»، بل إنه يقلل من قيمة الإرث الذي تركه المثقفون «القدامى» و«السجل المروّع» لسلوكلهم⁵⁵.

بالرغم من أن روبينز يشير باستمرار الى الانتصار المفترض ليسار الثقافي، فإن ما يصفه بالفعل هو أن الأكاديمي المحترف حل محل رسالة المثقف. إن عدم إبدائه القلق حيال تراجع استقلال المثقف يوازيه تكيف براغماتي مع متطلبات المؤسسة الفكرية. ومن هذا المنظور، فإن الحط من قيمة الاستقلال الفكري يعد ضربة إيجابية موجهة للنخبوية العتيقة. يكتسب المثقف الجديد سلطته من مؤسسته، ولا يتطلب إحساساً بالاستقلال. لكن بالطبع فإن الأكاديميين لا يمثلون جميعاً المؤسسة الثقافية، ويتبنون الهوية الامتالية للمفكر الأليف. كما أن العديد من المثقفين المؤسسيين يتوقون إلى إحراز درجة أكبر من الاستقلال عن الضغوط المؤسسية. ينزع معظم الأكاديميين لأن يكونوا احترافيين أذكياء وخبراء حاذقين غير مؤهلين، ويا للأسف لأداء دور المثقف العام. إنهم ينتمون إلى مؤسساتهم، ويبقون غرباء عن جمهور العامة.

